# المتخيّل الاجتماعي الجديد في فلسطين بعد أوسلو(*)

**ليزا تراكي(**)**

**جامعة بيرزيت.**

مع حلول الذكرى العشرين لاتفاقيات أوسلو في أيلول/سبتمبر ٢٠١٣، شهدت أوساط أكاديمية وإعلامية في فلسطين، وفي أنحاء العالم، طفرة ملحوظة من المؤتمرات والكتابات، قدمت، في مجملها، رؤى نقدية لهذه التجربة الفلسطينية. ومن أكثر المؤتمرات نقدية، أشير إلى مؤتمر عقد في لندن في شهر تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٣ بتنظيم من جمعية فلسطين في مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن بعنوان «النقد الذاتي عقدين بعد أوسلو». وتمحور النقاش في المؤتمر المذكور حول «الطريقة التي تموضعت/زرعت بها النخب الفلسطينية ضمن منطق الاستعمار الاستيطاني وكيف استقبلت ورحبت بالرأسمالية النيوليبرالية، وأعادت إنتاج التكيف الاجتماعي والسياسي مع سيرورة أوسلو». وتضمنت فكرة المؤتمر مقولة مستفزة حول «إعادة إنتاج منطق أوسلو في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والطرق التي تعيد بها المقاومة الفلسطينية لأوسلو وإسرائيل، والتضامن الدولي مع تلك المقاومة، إنتاج ذات الشروط التي تسعى لنفيها»(١).

في ضوء كل هذا الكم من التحليلات النقدية لتبعات ومآل مسار أوسلو، هل من جديد يمكن قوله، بما في ذلك عن التحولات الاجتماعية خلال العشرين عاماً الماضية؟ لقد كتب، وقيل الكثير، عن السياسات والتوجهات الاقتصادية ـ الاجتماعية النيوليبرالية للسلطة الفلسطينية وآثارها الاجتماعية (ومضمون مؤتمر لندن مؤشر على ذلك)، وعن أفول حركة المقاومة الفلسطينية التابعة لمنظمة التحرير وقيمها وأساليب عملها وظهور أشكال جديدة من العمل السياسي مثل «الحراكات الشبابية»، وعن «الأسلمة المجتمعية»، وعن التحولات في القوى

(*) في الأصل، قُدِّمَت نسخة أولية لهذه الورقة في مؤتمر مؤسسة الدراسات الفلسطينية «عشرون عاماً على اتفاق أوسلو: مستقبل القضية الفلسطينية بعد خمسة وعشرين عاماً على إعلان الاستقلال»، رام الله، ٢٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٣.

(**) البريد الإلكتروني: ltaraki@birzeit.edu.

(١) SOAS Palestine Society Annual Conference Website, <http://soaspalsoc.org/conference/>, and Wimeo Website, <http://vimeo.com/channels/soaspalestine>.

العاملة، وبخاصة نمو القطاع العام المكوَّن من مؤسسات وأجهزة السلطة الفلسطينية، وعن الآثار الاجتماعية والاقتصادية لنظام الفصل والتشظي الحيّزي/المكاني والاجتماعي الناتج من نظام المعازل، وعن تغيرات في أنماط الهجرة الداخلية، وبخاصة الهجرة إلى منطقة رام الله (المالكي، ٢٠١٢)، وعن توسيع التعليم العالي، وعن معدلات الفقر والبطالة المرتفعة، وعن تشكل نخب اجتماعية جديدة، بما فيها برجوازية فلسطينية، وعن الاعتماد المتنامي على المساعدات الدولية، وعن شيوع المنظمات الأهلية، وانتشار المحسوبية في بيروقراطية السلطة الفلسطينية ومؤسسات مجتمعية أخرى، وأنماط الاستهلاك وانتشار أنماط حياتية وأخلاقيات جديدة، تتضمن زيادة القروض الاستهلاكية والمديونية الفردية؛ هذا من بين مواضيع أخرى.

وفي هذا السياق، أرى أنه من المناسب أن نسأل: هل يمكن اعتبار معظم، أو بعض، هذه التحولات الاجتماعية، وبخاصة بفلسطين المحتلة عام ١٩٦٧ ما بعد مرحلة أوسلو، جرت باستقلال شبه تام عن مؤثرات أخرى؟ هذا سؤال مركزي لم يُسأل كثيراً في سياق الكتابة والحديث عن مسار أوسلو ونقده، ذلك أن معظم الكتّاب انشغل بنقد النظام السياسي الفلسطيني وانخراطه في سياسات اقتصادية واجتماعية تعمّق التبعية للاستعمار بدل أن تقاومه. وبذلك، يتم تجاهل السياق الأوسع وفعل القوى الإقليمية والعالمية في المشهد المحلي الفلسطيني.

وللإجابة عن السؤال، يبدو لي أننا أمام ظاهرة تعمّ الوطن العربي، إذ إن ضمن الفترة الزمنية نفسها، أي خلال العشرين عاماً الماضية، أنتجت السياسات النيوليبرالية الاقتصادية والاجتماعية في الدول العربية العديد من التحولات الاجتماعية الحاصلة في فلسطين، مثل البطالة والفقر، وتشكل نخب اجتماعية جديدة، وانتشار المنظمات الأهلية وخطابها ومشاريعها، من بين نواحٍ أخرى، حتى لو سلّمنا بخصوصية الوضع الاستعماري الخاص بفلسطين.

## أولاً: تبلور متخيّل اجتماعي جديد

أود التركيز هنا على أحد هذه التحولات الاجتماعية في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧، وهي تحولات في البنية الطبقية والوعي المرافق لها من تبلور متخيّل اجتماعي جديد وأنماط حياتية وأخلاقيات جديدة. وبالأساس، الموضوع هو تبلور كتلة من الفاعلين الاجتماعيين الجدد، وهم أفراد الطبقة الوسطى، حملة وحاضنو «المتخيّل الاجتماعي» (social imaginary) والأنماط والقيم الحياتية الجديدة، والمنتشرة من رام الله إلى نابلس ومن الخليل إلى غزة (وأيضاً من عمان إلى الدار البيضاء؛ حيث إن الظاهرة عربية وإقليمية بل عالمية). وحسب التقديرات المتداولة، فقد توسعت صفوف هذه الفئة الاجتماعية كثيراً في السنوات الماضية[٢]. لقد كتب الكثير عن بعض مظاهر قيم هذه الطبقة في فلسطين، وكلها تقريباً بروح نقدية، وذلك في الإنتاج الأكاديمي، كما في كتابات جميل هلال عن الموضوع (هلال، ٢٠٠٦)، وفي

(٢) يؤرخ جميل هلال مراحل تكوين الطبقة الوسطى في: (هلال، ٢٠١٣: ٣١ ـ ٤٢).

الكتابات والتعبيرات الأدبية والفنية، كالأفلام والأعمال الفنية النقدية، أحدها رواية لكاتب وسوسيولوجي ناشئ بعنوان رام الله الشقراء (يحيى، ٢٠١٢).

وبشكل عام، أود الإشارة إلى أنه في تناولي للطبقة الوسطى، لا أركز بالدرجة الأولى على دور هذه الطبقة السياسي ورسالتها المجتمعية («الحداثية»، كما يقال)، الأمر الذي شغل العديد من الذين كتبوا عن الطبقة الوسطى العربية والفلسطينية، ومن بينهم جميل هلال الذي يركز على فشل الطبقة الوسطى الفلسطينية في الحيّز العام من خلال نشاطاتها، وفشلها في تحويل ذاتها إلى أداة مؤثرة في القرار السياسي وفي السياسات الاجتماعية (هلال، ٢٠١٣: ٣٦). إن ما يهمني في هذا المجال هو مخيال هذه الطبقة، وبخاصة في ما يتعلق بتصورها للحياة الفردية والعائلية واستراتيجياتها للبقاء والحراك الاجتماعي، أي حظوظها في الحيّز الخاص، وفي ما يرتبط بواقعها ومستقبلها في ذلك الحيّز. ورغم اتفاقي مع هلال حول عدم تجانس هذه الطبقة ثقافياً وسياسياً، والحذر من تنميط الطبقة فكرياً وثقافياً، إلا أنني أرى، والمؤشرات على ذلك موجودة بكثرة في الحياة اليومية، أن هناك ما يمكن اعتباره متخيّلاً اجتماعياً جامعاً يميز هذه الطبقة، ولا سيَّما الفئات المتعلمة منها، لا يرتبط، إلا نادراً، بموقعها المجتمعي ورسالتها المجتمعية؛ بل تتعلق أساساً بحياتها الخاصة وسعيها لتحسين شروطها. فمثلاً، كيف نفسر نجاح مؤسسة «إلهام فلسطين»، وهي مرتبطة بمؤسسة عالمية، في جلب اهتمام المدارس في أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة لبرامجها الهادفة «إلى الوصول إلى نظام تعليمي أكثر تحفيزاً وتقديراً للإبداع التعليمي والتربوي، وأكثر قدرة واستعداداً على مواكبة التطور والتجديد»، إلى جانب أهداف أخرى[٣]؟ إن المهم في الأمر هو الشغف في تبني استراتيجيات تعليمية جديدة، أكثر تأقلماً مع القيم والمعايير المعولمة، وذلك من قبل فئات اجتماعية ربما لا تتمتع بامتيازات الطبقة الوسطى المتعلمة من حيث الإمكانات الحقيقية ورأس المال الثقافي المطلوب، ولكن «أصابها» هذا المتخيّل.

## ثانياً: امتداد إقليمي

واللافت للانتباه هو الامتداد الإقليمي لهذه الطبقة. إذ إن فلسطين اليوم هي جزء من مشهد عربي يتمثل بانهيار المشروع الاجتماعي والسياسي للدولة ما بعد الكولونيالية في ظل السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي تكتسح العالم والمدن بشكل خاص. وفي الوطن العربي، إن سحب دعم الدولة لخدمات أساسية هامة كالتعليم والرعاية الصحية وضمان التشغيل جعل فئات واسعة من الشعوب العربية في حالة فقر وانكشاف. ومن بين ضحايا هذا النظام المعولم نجد أن الطبقات الوسطى، وفي ظل تخلي الدولة عنها، بدأت تبحث عن حلول فردية تتمثل بمشاريع فردية وعائلية للحراك الاجتماعي ولضمان المستقبل. وقد أجبرت أفراد الطبقة الوسطى على اعتماد استراتيجيات فردية للبقاء وللحراك الاجتماعي، من أجل أن تسلّح نفسها في اقتصاد معولم يتطلب مهارات واستعدادات من نوع معيّن أيضاً.

(٣) انظر موقع إلهام فلسطين الإلكتروني: <http://www.elham.ps/>.

ويجب التوضيح أن تخلّي الدولة عن المواطنين فرض اتباع استراتيجيات فردية من قبل الفئات العمالية والفقيرة أيضاً، ولكن بأشكال وبمعانٍ اجتماعية وثقافية مغايرة ومختلفة. فنجد أن أُفقهم الاجتماعي أضيَق من أفق الفئات الوُسطى الأكثر تعليماً، إذ إن نضالهم وكفاحهم ليس موجهاً إلى الحراك الاجتماعي بالدرجة الأولى، وإنما نحو البقاء والصمود أمام الظروف العصيبة. إن ما يميّز استراتيجيات الفئات الأكثر تعليماً وطموحاً من الطبقة الوسطى (الفعلية والمرجوة) هو الشغف لاكتساب مهارات واستعدادات ذهنية واجتماعية ورمزية من نوع معين[٤]، فنجدهم يستثمرون جهوداً وطاقات كبيرة في اكتساب أنواع مختلفة من رأس المال الثقافي الفردي: من تعلم لغات أجنبية واكتساب المهارات والأذواق القابلة للتسويق والاستثمار في الاقتصاد المعولم محلياً وفي الخارج أيضاً. ونجد تجسيدات لهذا الشغف في ممارسات الحياة اليومية في فضاءات مختلفة كجامعات، ومؤسسات شبابية وغيرها، ومطاعم، ومقاهٍ، وقاعات العروض المسرحية والفنية والموسيقية، وصالات اللياقة البدنية، والمدارس الخاصة التي تركز على تمرير ثقافات معولمة، ومؤسسات تدير دورات في مهارات القيادة والريادة، وطيف واسع من الأماكن والفضاءات التي تساهم في صقل الاستعدادات والأذواق والمهارات القابلة للتنقل عالمياً والتسويق محلياً أيضاً.

وكشريحة اجتماعية طبقية في طور التكوين والتحول، تتسم الطبقة الوسطى بحيازتها وعياً اجتماعياً عالياً بكونها فئة اجتماعية مميزة (رغم عدم التجانس الفعلي في الخلفيات والإمكانات والموارد المادية والرمزية)، فهي تسعى جاهدة لتمييز نفسها من شرائح الطبقة الأقل امتلاكاً لرأسمالها، وتسعى لوضع مسافة بينها وبينهم. ويُعتبر الاستهلاك، بلا منازع، الوسيلة التي يتم من خلالها هذا النضال الدؤوب. ويمكن للاستهلاك أن يأخذ شكلاً مادياً، ولكن هناك أيضاً أساليب تعبير رمزية قوية نجدها في استهلاك سلع أخرى، مثل أنواع معيّنة من التعليم (وينبغي أن يفهم التعليم هنا بالمعنى الأوسع للكلمة للإشارة إلى الأذواق والمهارات الاجتماعية والثقافية من مختلف الأنـواع). ويتم تعزيز أيديولوجيا الفردانية، والإنجـاز الفردي، والمنافسة، والريادة، ومفاهيم أخرى.

إذن، ما يجري في الأرض المحتلة هو تعبير، أو تجسيد، لتيار إقليمي/عربي، ولكن هذا يحصل ليس في سياق فشل مشروع الدولة ما بعد الاستعمار، كما الحـال في مصر مثلاً، وإنما ـ وهنا المفارقة ـ في سياق تعميق السيطرة الكولونيالية على فلسطين.

## ثالثاً: الوقوع في أسر متخيّل اجتماعي «جامع»

الأمر الهام هو أن الواقع المعاش لهذه الطبقة في فلسطين (وهي غير متجانسة كما أشرت)، كمعظم الفئات الوسطى العربية، لا يتطابق بالضرورة مع النموذج المثالي له، إذ إن شرائح واسعة من هذه الطبقة لا تملك الرأس المال المادي أو الثقافي للتنافس الحقيقي والفعلي، غير أنها أسيرة لمتخيّل اجتماعي جوهره «فكرة الطبقة الوسطى» (The Middle Class Idea)،

(٤) الإشارة هنا هي إلى استعدادات بمفهوم بيير بورديو، كجزء من الهابيتوس الطبقي.

أو الطبقة ـ وسطية» (Middle-classness)[٥]، كمثال أعلى، كإمكانية، وكطموح ـ إن لم يكن بالضرورة ـ كواقع معاش.

يمكن اعتبار هذه الطبقة، وبخاصة في الضفة العربية، حاضنة لمتخيّل اجتماعي خاص يتم تلمّسه في حيثيات وتدفق الحياة اليومية باستمرار. فما يميّز هذه المرحلة «ما بعد الأوسلوية» هو سيادة متخيّل اجتماعي طبقي يقترب من أن يشكل أيديولوجيا الطبقة الوسطى، ويتمثل بالخطاب اليومي والممارسات الفردية والمؤسساتية بعينها.

ورغم وجود تيارات أيديولوجية متباينة في الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، ورغم وجود فروقات بين مناطق الضفة الغربية مثلاً، كظاهرة المناطقية والجهوية الآخذة بالزيادة في السنوات الأخيرة نتيجة سياسات وواقع التجزئة والتشظّي الاستعمارية، إلا أن هنالك متخيّلاً اجتماعياً يمكن وصفه بجامع يتم بلورته، رغم هذه التباينات في أوساط الطبقة الوسطى، وخصوصاً في الأوساط الأكثر تعليماً منها، كما أوضحت سابقاً. إذ إننا نجد أنه لا فرق يذكر بين الأشخاص ذوي التوجهات الإسلامية والليبرالية، وحتى اليسارية، في ما يتعلق بإدراك أهمية التسلح بثقافة المدارس الخاصة لأطفالهم، أو بأهمية اكتساب معارف وقدرات في دورات اللغة الإنكليزية أو المهارات المعولمة الأخرى، والتي غالباً تقام بدعم من مؤسسات دولية أو مؤسسات أهلية محلية. ويجب التوضيح أن رام الله ليست المدينة الوحيدة التي تتم فيها صناعة هذا المتخيّل الاجتماعي، إذ إن معرفة عابرة بمدن القدس ونابلس وبيت لحم، والخليل بشكل خاص، تؤكد وجود كل تلك الفضاءات التي تحتضن هذا المتخيّل.

## رابعاً: إطلالة تاريخية

وفي الحقيقة، هذه الأيديولوجيا في طور التكوين منذ أوائل التسعينيات، وهي متأثرة قطعاً بالتحولات السياسية الفلسطينية، أهمها أفول الحركة الوطنية الفلسطينية والمقاومة المتمثل بمنظمة التحرير، وتدشين مرحلة جديدة من البحث عن «السلام» مع إسرائيل والحركة الصهيونية. فالسؤال الذي يمكن طرحه الآن هو: ما هي القوى الاجتماعية التي كانت مستعدة في ذلك الحين لاستبطان هذا المتخيّل، هذا التصور لحياة «طبقة ـ وسطية»؟ هل هي فقط النخب الاقتصادية والاجتماعية المهيمنة؟ وحتى لو لم تتبنَّ منظمة التحرير خيار التسوية على غرار أوسلو، فهل كان من الممكن نمو هذا المتخيّل الاجتماعي الجديد الذي كان يعمّ المجتمعات العربية؟ هذا ـ بالطبع ـ سؤال افتراضي، ولكن ما هو واضح أنه مع بداية التسعينيات، تبلورت قوى اجتماعية كانت جاهزة لتبنّي المتخيّل الجديد والعمل على استبطانه واستدخاله.

كما كتبت في مكان آخر (Taraki, 2008: 61-81)، كانت هناك قوى اجتماعية مع بداية التسعينيات مستعدة للقبول بتسوية سياسية، ولم تكن مكونة فقط من قيادات فتح والمنظمة

(٥) اقتباساً من جيانندرا باندي الذي يناقش المفهومين في سياق المستعمرات الآسيوية والأفريقية السابقة في القرن العشرين (Pandey, 2009).

في المنفى، أو من أصحاب رؤوس الأموال في الشتات أو في الأرض المحتلة المتطلعين إلى جنْي فوائد التسوية، ولكن ـ وإلى جانب فئات اجتماعية أخرى ـ من أفراد من فئة اجتماعية يمكن تسميتها الطبقة الوسطى الجديدة، شملت قيادات وأفراد الصف الأول والثاني من الفصائل السياسية، الذين كانوا يشهدون التآكل المستمر لقواعدهم الاجتماعية مع ضمور الانتفاضة الأولى. إضافة إلى هذا، تم تعزيز هذا التوجه بعامل اجتماعي هام، وهو تغذية هذه الفئات بمئات خريجي الجامعات، المستفيدين من مشروع منظمة التحرير لدعم الجامعات الفلسطينية في الداخل، وأيضاً دعم التعليم في دول صديقة للمنظمة وأحزاب اليسار مثل الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية. فبين الأعوام ١٩٧٥ و٢٠٠١، منحت الجامعات في الضفة الغربية وقطاع غزة شهادات لأكثر من ٥٥٠٠٠ خريجٍ وخريجة (مجلس التعليم العالي، ١٩٩٦، ووزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ٢٠٠٢).

ويمكن القول إن إنشاء السلطة الفلسطينية مهّد لمرحلة ما يمكن تسميته «التطبيع المجتمعي» (Social Normalization) الذي تضمن شرعنة المنزلة الاجتماعية، والتراتبية، والامتيازات. ورافق هذا الوعي المتزايد بالمكانة الاجتماعية والتراتبية، رفض لثقافة المقاومة التي تم صوغها في السبعينيات والثمانينيات في إطار الحركة الوطنية ومن قبل جيل من الشبان والشابات الذين تعلّموا أساساً في جامعات وكليات محلية، وانحدر العديد منهم من أصول فلّاحية قريبة العهد، واستقرّوا في رام الله وغيرها من المدن الرئيسة بعد دراستهم الجامعية. وكان قد أدّى هؤلاء دوراً هاماً في بلورة ثقافة للمقاومة وصلت ذروتها في الانتفاضة الأولى في أواخر الثمانينيات. ولم تقلل هذه الثقافة من شأن الفوارق الاجتماعية وحسب، بل استلزمت أيضاً الحفاظ على حالة قوية من المقاومة لا تشجّع على «تطبيع» الحياة خارج المجال المسموح.

ولكن، وبعد ضمور الانتفاضة، وتسارع المفاوضات مع إسرائيل، وفي النهاية إنشاء السلطة الفلسطينية، فقدت الأحزاب السياسية والحركات الجماهيرية جانباً كبيراً من جمهورها، وتعرّض نشطاء اليسار ـ على وجه الخصوص ـ للتهميش من جانب حركة فتح السائدة. ولكن تم احتواء هؤلاء إلى حدٍّ كبير في النظام الجديد بعد أوسلو، وتم استيعاب قطاعات من الناشطين السياسيين من الحركة الطلابية والتنظيمات في المنظمات الأهلية وفي بيروقراطية السلطة، وتم تدشين نظام جديد من الرتب والمسمّيات مثل مدير عام ومدير «أ» و«ب» وغيرها، والتي بمجملها تؤشر إلى القبول العام بهذه التراتبيات التي كانت يوماً ما، قبل فترة أوسلو، غريبة عن المجتمع ولكنها اليوم أصبحت طبيعية.

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن أفراد هذا الجيل من النشطاء السياسيين؛ حملة الشهادات الجامعية وأصحاب الخبرة في الفصائل السياسية وفي السجون وفي المنظمات الشعبية وفي الحركة الطلابية في الجامعات؛ بلغوا سن النضج في هذه الفترة، ووجدوا أنفسهم أمام تحديات المستقبل من تكوين عائلات وإيجاد العمل اللائق، وتأمين مستقبل أولادهم في ظل وضع سياسي متغيّر ومتقلب. وأشير هنا إلى أهمية العامل الاجتماعي هذا، إذ وجد (في نهاية عقد الثمانينيات) فئة لا بأس بها من خريجي الجامعات، واجهوا قرارات حياتية مصيرية في ضوء الظروف الجديدة، مهدت الطريق لتبنّيهم مقولات «العهد الجديد»، وأنماط الحياة الجديدة. ومع تسارع سيرورة التسوية وتهميش خطاب وممارسة المقاومة،

وجدت هذه الفئات نفسها خاضعة لنفوذ نهج «التطبيع»، أي التطبيع الاجتماعي: انتشار وعي يتضمن تطبيع التراتبية وشرعنتها، بروز أشكال جديدة من «السياسة العادية» تمارَس من قبل المنظمات الأهلية وبيروقراطية المنظمة، وانهيار الإجماع الوطني والثوابت الوطنية، والميل نحو اكتساب السلع المرتبطة بالتميز، وبخاصة في مجال تعليم الأبناء والبنات، وأشكال جديدة من التعبير الثقافي. وقد رافق هذا أيضاً مسعى لنزع الشرعية عن الخطاب المهيمن للحركة الوطنية في السبعينيات والثمانينيات الذي كان يمجد الثقافة الفلاحية، والتقشف، وقيم مساواتية مرتبطة بحركة تحرر قائمة.

## خامساً: تجليات المتخيّل الاجتماعي الجديد

ويشكل تدشين ما يمكن وصفه بـ «السياسة العادية» (Normal Politics) جزءاً من ظاهرة تطبيع الحياة والابتعاد عن ثقافة المقاومة. وقد تبنى عدد من مخضرمي الأحزاب السياسية وكوادر منظمة التحرير الخطاب النيوليبرالي السائد إقليمياً وعربياً حول الحكم الرشيد، والدمقرطة، والتعبئة والمناصرة، والتشاركية والعمل في «المجتمع المدني». على سبيل المثال، لقد شهدنا مؤخراً تظاهرة شبابية كبيرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، والمتمثلة بانتخابات المجلس التشريعي الشبابي التي نفذت إلكترونياً في أيلول/سبتمبر ٢٠١٣، حيث سجل أكثر من ٤٥٠٠٠ ألف شاب وشابة (٣٤ بالمئة منهم نساء) للانتخابات، من بينهم تقريباً ١٥٠٠٠ من قطاع غزة. وكانت نسبة الانتخاب ٦٠ بالمئة من مجموع من يحق لهم الانتخاب (المجلس التشريعي الشبابي، ٢٠١٣، والمجلس التشريعي الفلسطيني، ٢٠١٣). واللافت أن نظام الانتخابات هذا، أعاد إنتاج سمات النظام الانتخابي القائم في مناطق السلطة الفلسطينية، بما فيه الكوتا المسيحية (الشايب، ٢٠٠٩، ورواديو بيت لحم ٢٠٠٠، ٢٠١٣).

ويمكن ذكر تظاهرة أخرى، أكثر «شعبية»، كمثال على ممارسة «السياسة العادية» وتطبيع النظام السياسي الرسمي السائد، وهي انتخابات «الرئيس الشاب» برعاية وكالة إخبارية محلية، وفي إطار برنامج ما يسمى «تلفزيون الواقع» (Reality TV) استغرق ثلاثة أشهر في عام ٢٠١٣. هدف البرنامج «إلى تعزيز المواطنة لدى الشباب الفلسطيني خصوصاً... من خلال التوعية بمفاهيم الديمقراطية وحقوق الإنسان وتقوية الروح القيادية وتنمية المسؤولية المجتمعية»، وسجل له ١٢٠٠ شاب وشابة من الضفة الغربية وقطاع غزة ومناطق ١٩٤٨، تم اختيار ٢٥ منهم (من بينهم ٦ نساء) للمشاركة في البرنامج الذي كان يبث على الهواء أسبوعياً. وساهم الجمهور في عملية التحكيم بنسبة ٢٥ بالمئة من خلال الرسائل القصيرة، بينما كان دور لجنة الحكماء أكثر حسماً، بنسبة ٧٥ بالمئة. وتكوّنت لجنة الحكماء حسب المنظمين من «نخبة من الشخصيات الوطنية والأكاديمية والاقتصادية» (وكالة معاً الإخبارية، ٢٠١٣). وفي إحدى المراحل المتقدمة، بقي ١٣ متسابقاً دخلوا مرحلة التصفية النهائية، ٤ من الخليل، ٣ من غزة، ٢ من بيت لحم، وواحد من كل من طولكرم ونابلس وسلفيت ورام الله.

وفاز متسابق رام الله في النهاية، وهو، كما جميع المتسابقين في المرحلة الأخيرة، خريج جامعة فلسطينية[٦].

ومن الواجب هنا القول إن الصورة التي أرسمها لا تعني شرعنة النظام السياسي القائم وتطبيعه بشكل قطعي ونهائي. ففي أحيان عديدة، نجد تأرجحاً، إن لم يكن ازدواجية أو حتى انفصاماً، في خطاب وممارسة المؤسسات الشبابية ومؤسسات أخرى، أي بين التماهي مع النظام السياسي القائم من جهة، ورفض ممارساته ومنطلقاته من جهة أخرى، الأمر الذي يعكس تناقضاً ضمنيا كامناً بين الواقع الفلسطيني المستعَمر والطموح نحو «العادية» من جهة أخرى. فمثلاً، نرى أن منتدى شارك الشبابي، المؤسسة الراعية لانتخابات المجلس التشريعي الشبابي المذكورة، تبنت رؤية نقدية للنظام السائد في مناسبات أخرى، كما بان مؤخراً من خلال تنظيمها لقاءات شبابية حول مخاطر التطبيع السياسي والأكاديمي والثقافي مع إسرائيل ونشرها في وسائل الإعلام بشكل لافت (قاسم، ٢٠١٣)[٧].

وعلى صعيد الأفراد، كما في حالة بعض المؤسسات مثل منتدى شارك، هناك تذكيرات يومية عن الحالة الاستعمارية، حالة اللاطبيعية التي لا يمكن لأي مناصر للدمقرطة أو الحكم الرشيد أن يتجاهلها. فنرى هنا انفصاماً واضحاً في الوعي: من جهة تبني الخطاب النيوليبرالي الجديد، ومن جهة الاستعانة بالخطاب الوطني العام الذي ما زال في جوهره يتبنى مقولات المقاومة ويثمّنها ويشرعنها. إن الشاب الفائز بلقب «الرئيس الشاب» لم يستطع أن يتجاهل قضية الأسرى في السجون الإسرائيلية، مثلاً، حين قام بزيارة خيمة اعتصام أهالي الأسرى الفلسطينيين المضربين عن الطعام في رام الله وقال إنهم «يمثلون صفوة الشباب الفلسطيني بوقوفهم المستمر واعتصامهم الدائم تضامناً مع أسر الحرية وهم يسجلون موقفاً بطولياً وموقف الرجال العظام في زمن عَز فيه الرجال» (دنيا الوطن، ٢٠١٣). كما زار خيمة الاعتصام بحي البستان في سلوان المقام للاحتجاج على اعتداءات المستوطنين وسياسة هدم البيوت. وعموماً، هناك نشاز قائم بين الخطاب السياسي التفاؤلي حول ممارسة المواطنة واحترام الديمقراطية وحقوق الإنسان، وواقع الاستعمار المتجذر الذي لا يمكن لأي فرد الإفلات منه في حياته اليومية لو سعى جاهداً لفعل ذلك.

ولا بد من ذكر حقيقة أخرى فيها نوع من المفارقة أو الازدواجية، وهي سيادة روح من التشكيك والسخرية والاستهزاء والجبرية والقدرية إزاء جوانب من النظام لدى العديد من نشطاء «المجتمع المدني»، كأن الجميع يعرف أنها لعبة لا تؤدي إلى الانعتاق. ولكن هناك استثناءات هامة ومضيئة في هذا المشهد، وهي المجموعات الشبابية الرافضة للتطبيع السياسي والمجتمعي (إلى حد معيّن) والذين نظموا عدة تظاهرات خلال العامين الماضيين.

وعودةً إلى مجالات تبلور المتخيّل الاجتماعي الجديد، يمكن هنا الإشارة إلى المناخ الفكري والسياسي العام الذي يشجع على تبلوره، من بينها توجه قيمي، جديد نسبياً، نحو تطوير الذات

---

(٦) <https://www.facebook.com/MaanPresident>.

(٧) على سبيل المثال، انظر: موقع فضائية فلسطين اليوم الإلكتروني، <http://paltoday.tv/index.php?act=post&id=8655>.

و«التنمية الفردية». ويتم التعبير عن هذا التوجه بشكل لافت في مجال الأطفال والشباب، إذ نشهد اهتماماً متزايداً بحقوق وتنمية قدرات الأطفال والشباب من خلال برامج تدريبية وفنية وترفيهية وأكاديمية متنوعة. هذه اهتمامات جديدة، في تركيزها على الفرد وتنمية قدرات الفرد، الفرد الواحد المنزوع عن السياق الاجتماعي أو الوطني المستعَمر.

ويتضمن هذا الاهتمام الجديد خلق و«اكتشاف» فئات وأصناف اجتماعية جديدة لم تكن متداولة في الخطاب الفلسطيني قبل عقدين من الزمن. في هذا السياق، وبخصوص الشباب، تقول الأنثروبولوجية اللبنانية ميسون سكرية، وهي من أوائل الذين كتبوا عن هذه الظاهرة في الوطن العربي، أن فئة «الشباب»، رغم ارتفاع نسبتها في المجتمع العربي، يتم صناعتها بدوافع مختلفة، من بينها دوافع سياسية تتعلق بمكافحة الأصولية ونشر «ثقافة الأمل»... إلخ. واجتماعياً، ترى سكرية أن التحول نحو «الشباب» العربي «يعمل... على ترويج نموذج نيوليبرالي من الإصلاح الاقتصادي والسياسي في المنطقة، يصرف الانتباه عن الفوارق والمظالم الاجتماعية والبنيوية، ويضع مسؤولية حل مشكلة الاضطرابات في المنطقة على كاهل الشباب كأفراد، ما يصب في مصلحة رجال الأعمال العرب والنخب السياسية والاقتصادية الغربية» (سكرية، ٢٠١٢: ٦٢ ـ ٧١).

وفي هذا السياق، نما في فلسطين المحتلة عام ١٩٦٧ عدد كبير من المؤسسات الشبابية «المجتمعية» والمرتبطة في أحيان كثيرة بمنظمات عالمية وعربية. والسمة اللافتة لمعظم هذه المبادرات (باستثناءات قليلة) هي تبني الخطاب النيوليبرالي. فهناك الحديث عن تمكين الشباب كأفراد: بناء رأس المال الاجتماعي الخاص بالأفراد، تعزيز قيم الديمقراطية في الممارسة الحياتية، والاستعداد لتقبل الاختلاف واحترام مبدأ الحوار، وغيرها من القيم المستقاة من القاموس الليبرالي. ويتم الترويج في السنوات الأخيرة لفكرة أخرى متصلة بذلك، وهي فكرة «الريادة»، أي «ريادة الأعمال» (Entrepreneurship) و«الريادة الاجتماعية» (Social Entrepreneurship)[٨].

ويلاحَظ كثرة البرامج والمشاريع لضخ الأمل في الشباب من خلال سرد علنيٍّ لروايات النجاح الفردي الإلهامية، على غرار الأسطورة الأمريكية المنشأ المعروفة «من الفقر إلى الثروة» (From Rags to Riches). والرسالة، ببساطة، هي أنه بمقدور أي شخص أن ينجح إذا كانت لديه العزيمة والإرادة والعناد، ويتم التركيز على مبدأ الاستحقاق والجدارة، أي أن الجهد يقابله النجاح، وما إلى ذلك (أبو غنام، ٢٠١٢)[٩]. ويغيب عن خطاب الريادة هذا اعتبارات من قبيل: كيف يمكن تحقيق النجاح الفردي في ضوء عدم المساواة البنيوية، وما إذا كان هذا ممكناً للجميع أو فقط لمن ينجحون في التنافس المحتدم والشرس أحياناً، أو إذا كان

(٨) هناك مشاريع ومؤسسات عديدة في هذا المجال، فلسطينياً وعربياً، يتمّ دعمها من قِبَل أطراف أوروبية وأمريكية، من بينها الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والاتحاد الأوروبي.

(٩) يمثل فاروق الشامي، رجل الأعمال الفلسطيني ـ الأمريكي الثري المنحدر من إحدى قرى منطقة رام الله، النموذج المثالي لذلك. انظر: «Farouk Shami,» Wikipedia, <http://en.wikipedia.org/wiki/Farouk_Shami>.

السياق الاستعماري ينتج ديناميات تعرقل النجاح الفردي، أم أصلاً إذا كان من الملائم طرح مثل هذه الأوهام في أوساط شعب مستعمر؟ (زحالقة، ٢٠١٣).

ويمكن إعطاء مثال على ذلك، وهو شيوع نوع جديد من الحدث يتضمن عقد محاضرات تتمحور حول قصص نجاح رجال أعمال فلسطينيين تلقى أمام حشود من الطلبة في الجامعات الفلسطينية. هنا يتم التركيز على الابتكار، الإبداع، وتحويل الأفكار الخلّاقة إلى اختراعات وابتكارات، وتشجيع الشباب على المبادرة وأخذ زمام الأمور بأنفسهم. واللافت للنظر في هذه الأنشطة التركيز شبه الكلي على المبادرات والجهود الفردية أمام الصعاب الممكنة، ولكنها تنتهي بقصص نجاح بمقاييس عالمية رأسمالية. أعتقد أنه لا يمكن التصور أن قبل عشرين عاماً كان بالإمكان اجتذاب الشباب والشابات وحفزهم لتقليد رجال الأعمال (وبعض سيدات الأعمال) بهذه الطريقة![١٠].

وأود توضيح فكرة الازدواجية في الخطاب مرة أخرى من خلال حدث آخر، وهو مهرجان «تيد ـ إكس رام الله» في عام ٢٠١١ بترخيص من مؤسسة «تيد» (TED) الأمريكية (لم يكن مقتصراً على الشباب، ولكن يؤشر إلى رواج فكرة الريادة والنجاحات الفردية الملهمة). تقوم مؤسسة تيد على فكرة أن «الأفكار البناءة قادرة على إحداث تغيير إيجابي في حياتنا وصولاً إلى عالم أفضل» (وهذا شعار آخر من القاموس الليبرالي)، ويتم دعوة أناس ناجحين ليتحدثوا عن تجاربهم وسرد قصصهم في مؤتمرات خاصة تعقد لهذا الغرض. ومن أبرز المشاركين في إلقاء المحاضرات هذه «بيل غيتس» مؤسس مايكروسوفت، بيل كلينتون الرئيس الأمريكي السابق، «جيف بيزوس» مؤسس شركة أمازون، المبشر الإنجيلي بيل غراهام، ورئيس الوزراء البريطاني السابق غوردون براون. وتمنح جائزة تيد السنوية إلى أشخاص «استثنائيين» يتطلعون إلى تغيير العالم نحو الأفضل فيحققون بفضلها طموحاتهم». ولكن مؤتمر «تيد ـ إكس رام الله» كان حدثاً فريداً، إذ نجح المنظمون في دمج قصص النجاحات الفردية الملهمة في مجالات الأعمال والفن مع روايات النضال السياسي من أجل فلسطين تحت شعار «قصص ملهمة عن فلسطين»، علماً بأن أحد أهداف المؤتمر كان «المساهمة في خلق نظرة إيجابية عن الحياة في فلسطين». ومن اللافت للنظر أنه تم التوضيح أن «الحدث يقام في مدينة تابعة لأرض محتلة يتعذر على جزء كبير من أبنائها الدخول إليها. كما أنه لا يسمح لرعايا عدد من الدول المجاورة عبور حدودها»[١١]. فماذا استطاع أن ينجز المؤتمر؟ لقد حافظ على روح مؤتمرات تيد، ولكن قام بتسييسها قليلاً عبر بضع أمثلة عن المساهمات الفكرية والسياسية النقدية، ومثال أو أكثر عن الفعل المقاوم، وغلّف قصص النجاحات الفردية بهالة من الشرعية الوطنية. ومن غير الواضح كيف استقبل الجمهور هذه الرسالة وماذا استخلص منها.

---

(١٠) تنظم جامعة بيرزيت، على سبيل المثال، سلسلة محاضرات حول «الريادة والرواد».

(١١) موقع رام الله (TEDx) <http://www.tedxramallah.com/ar/home>.

## خاتمة

في الختام، يبقى السؤال الجوهري: هل يستمر هذا «التطبيع المجتمعي» المعبّر عنه في متخيّل اجتماعي خاص كواقع حال جديد لا حيد عنه ولا انفكاك منه؟ ما هي آفاق استدامة هذا الوضع؟

تعتمد الإجابة عن هذين السؤالين على العديد من الاعتبارات المتعلقة بالوضع الفلسطيني المتقلب الراهن. فمن جهة، قد يستمر هذا «الاستقرار» النسبي في المستقبل المنظور بفعل مواصلة تدفق الدعم الدولي للمؤسسات والمشاريع الفلسطينية، تفادياً لانفجارات سياسية ونشوء حالة من التمرد. ومن المفيد الأخذ بالحسبان أن الفلسطينيين ربما اعتادوا على التعايش مع مظاهر الاستعمار المختلفة في حياتهم اليومية، ولذلك وطالما لا يوجد مشروع اقتصادي اجتماعي تحرري في فلسطين في المستقبل المنظور، يمكن توقع استدامة هذا الوضع لفترة ما.

ولكن من جهة أخرى، من الصعب أن نتجاهل الواقع المعاش على الأرض من استعمار استيطاني مستشرٍ ومتوسع بلا انقطاع الذي سيدفع، لا محالة، إلى نشوء حالة تمرد ومقاومة متجددة، قد يتبخّر في ظلها هذا الوعي وهذه الممارسات.

ولكن يمكن طرح سؤال آخر، وهو لماذا تكون فلسطين مختلفة في هذا الجانب عن المجتمعات المحيطة، حين يسود متخيّل اجتماعي مشابه يدفع الأفراد إلى البحث عن حلول فردية في ظل سيطرة المشروع الطبقي النيوليبرالي الذي يحرم فئات الشعب المختلفة حقهم في حياة كريمة؟ لكن هذا الوضع العربي هو متفجر أيضاً، إذ يخلق تناقضات داخلية، وبخاصة مع أنظمة الحكم السلطوية التي يتعارض أسلوبها في الحكم مع الطموحات الشبابية، ومن جهة أخرى يخلق تناقضات طبقية واسعة وبطالة لدى خريجي الجامعات و«كتلة شبابية» حرجة تطمح إلى التغيير. هذه مقدمات لانفجارات قادمة!

# المراجع


دنيا الوطن (٢٠١٣). «الرئيس الشاب يزور خيمة الاعتصام تضامناً مع الأسرى المضربين عن الطعام.» دنيا الوطن: ٢٠١٣/٨/٤، <http://www.alwatanvoice.com/arabic/news/2013/08/04/421306.html>.

راديو بيت لحم ٢٠٠٠ (٢٠١٣). «بالصور: «التشريعي» و«شارك» يعلنان عن القوائم الفائزة بالمجلس التشريعي الفلسطيني الشبابي.» راديو بيت لحم ٢٠٠٠: ٢٠١٣/١٠/٢، <http://www.rb2000.ps/ar/news/91369.html>.

زحالقة، فرح (٢٠١٣). «٦ جامعات فلسطينية توقع على اتفاقية للبدء بعمل برنامج تميز «٢».» وكالة وطن للأنباء: ٢٠١٣/١٢/١٠، <http://www.wattan.tv/ar/video/81627.html>.

سكرية، ميسون (٢٠١٢). «خطاب العولمة وتربية الشباب في العالم العربي.» **بدايات**: شتاء/ربيع.

الشايب، يوسف (٢٠٠٩). «برلمان شباب فلسطين... خطة نحو مشاركة فعلية للشباب في صناعة القرار السياسي.» **الأيام**: ٢٠٠٩/٧/٢٥، <http://82.213.62.39/article.aspx?did=117535 &date=7/25/2009>.

قاسم، جهاد (٢٠١٣). «نقاش شبابي حول قضية التطبيع.» وكالة وطن للأنباء: ٢٠١٣/٨/٢٢، <http://www.wattan.tv/new_index_video_desc.cfm?id=a9783593a782721&cat_id=a2246341a4584161#.Ulzbr1N0u_I>.

المالكي، مجدي (٢٠١٢). «حركة وتنقل السكان الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية: توجهات سياساتية عامة.» جامعة بيرزيت، معهد إبراهيم أبو لغد للدراسات الدولية، سلسلة أوراق عمل جامعة بيرزيت؛ ٢٠١٢/١، <http://ialiis.birzeit.edu/fmru/userfiles/CPE2012-1-Majdi-Malki.pdf>.

المجلس التشريعي الشبابي (٢٠١٣). «بيان صحفي، ٢٠١٣/١٠/٢.» <http://www.yplc.ps/wp/?page_id=1199>.

المجلس التشريعي الفلسطيني (٢٠١٣). «بيان صحفي: قائمتا التحالف الوطني الديمقراطي وأسرى الحرية تحصدان أعلى الأصوات: المجلس التشريعي الفلسطيني ومنتدى شارك الشبابي يعلنان عن القوائم الفائزة بالمجلس التشريعي الفلسطيني الشبابي.» المجلس التشريعي الفلسطيني ومنتدى شارك الشبابي (رام الله): ٢ تشرين الأول/أكتوبر، <https://groups.google.com/forum/#!msg/alquds-lna/ajh9uzocjkg/dptftahqu2aj>.

مجلس التعليم العالي (١٩٩٦). «المتخرجون من الجامعات الفلسطينية، ١٩٧٥ ـ ١٩٩٥.» **القدس**: مجلس التعليم العالي.

موقع فضائية فلسطين اليوم الإلكتروني: <http://paltoday.tv/index.php?act=post&id=8655>.

هلال، جميل (٢٠٠٦). **الطبقة الوسطى الفلسطينية: بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة**. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ رام الله: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية ـ مواطن.

هلال، جميل (٢٠١٣). «الطبقة الوسطى الفلسطينية وتحديات الشرذمة السياسية والخمول الفكري ـ الثقافي والنزعة المحافظة.» **أوراق فلسطينية**: العدد ٣، صيف.

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي (٢٠٠٢). **الدليل الإحصائي للجامعات والكليات الفلسطينية، ١٩٩١ ـ ٢٠٠١**. القدس: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.

وكالة معاً الإخبارية (٢٠١٣). «معاً تطلق برنامج الرئيس وأولى حلقاته تبث منتصف الشهر.» وكالة معاً الإخبارية: ٣ آذار/مارس، <http://maannews.net/arb/viewdetails.aspx?id=570975>.

يحيى، عباد (٢٠١٢). **رام الله الشقراء**. القدس: دار الفيل.

Pandey, Gyanendra (2009). «Can There Be a Subaltern Middle Class?.» *Public Culture*: vol. 21, no. 2.

Taraki, Lisa (2008). «Urban Modernity on the Periphery: A New Middle Class Reinvents the Palestinian City.» *Social Text*: vol. 26, no. 2.